# تَوثّب الذئب ونعومة الرماد

زاهي وهبي *

(مروان طحطح)

أنسي،
لا أعرفُ لماذا نثقل عليك وأنت في سكينة الأبد وطمأنينة الغياب؟ هي متعة الكتابة اليك، حيث تغدو الكلمات أكثر فتنةً وإغواءً، تراودنا عن أنفسنا ولا ضرورة لأن تشقَّ قمصاننا من دبر. فالشاعر دائماً على الحافة والشفير، تناديه الهاوية ويغويه الانزلاق، ولا يعود عارفاً تماماً أهو زليخة أم يوسفها، أم كلاهما في آن؟ وهل يصير المرء شاعراً ما لم تنصهر في منجم ابداعه معادن الأنوثة والذكورة معاً، ومن تلك المُراودة المُضنية الشاقة الشقية الشيقة، من شررها الصوّاني وجمرها اللّهاب، تولد القصائد المُحرقة (بكسر الراء).
أنسي،
أهو حدس الشاعر وظنّه الذي لا يخيب دفعاك للمغادرة قبل أن تكمل قصيدتك، وهل تكتملُ قصيدة بغير موت شاعرها؟ أرحلتَ كي لا يمتزج حبركَ بالدماء السائلة أنهاراً تحت سيف التوحش وخناجر الغرائز القاتلة، حين هشاشة الشاعر أرقّ من استطاعة روحه على الاحتمال، وكأني به يغدو أُمّاً مُنتحبة على أضرحة الراحلين جميعاً.
لكنكَ عشتَ حروباً واختبرت ويلات، ذقت مرارت الخسارة والفقدان، وحاولت ثأراً من سرطان خطف منك الأم باكراً (والزوجة لاحقاً) بأن سعيتَ لسرطنة اللغة والقصيدة، فكانت كلمتك رجيمة ملعونة، لكنها شهية مثل كل محرّم أو ممنوع، أشبه بوليمة مارقة لا يستطيبها حراس هيكل وأهل يقين.
ابن الشكّ أنتَ، حتى لو دفعتك الهشاشة في لحظة وداع أن تنادي مريم، ولعلّك ناديت الأمَّ التي فيها لا العذراء، أو لعلك ناديتَ الاثنتين معاً، ففيكَ من أثر الكتاب المقدس ما فيك، وفيك من رجاء القيامة والخلاص، ولعلك عشتَ وشهدتَ وكتبتَ دائماً بين حدّين: الشكّ واليقين، المقدّس والمدّنس، تَوَثُّب الذئب ونعومة الرماد، دهاء الصياد وزقزقة العصافير، وأنتَ صياد اللحظة الفاتنة الهاربة من منابر الرطانة ومعاجم التقليد. لكن ما كان لكَ أبداً أن تقول ما قاله سعدالله ونوس على فراش الرحيل: «لقد حاججَ أيوب ربَّه، أما أنا فمن أُحاجج، وليس لدي الا هذا اليقين اليتيم الموحش، من الظلام أتيت والى الظلام أعود». اذ على الرغم من كل ما فيك من جموح وجنوح وتمرد وخروج عن الطاعة، لم تنجُ البتة من نبرة خلاصية ورجاء أكيد. كلُّ غوّاص ماهر سيعثر لا محالة في قعر نصوصك على عُشبة قيامة موعودة نحو فراديس ترجوها على نجمة أخرى غير هذي الأرض التي هي جحيم الشعراء وسعيرهم المحموم.
ما عليه، ليس الآن وقت البحث والتمحيص، هي رسالة حُبّ وحنين، وكم كان لكَ من اسمك نصيب، كأن المارق الملعون على الورق ليس سوى كائن من حبر وكلمات. مجالستُكَ نزهة في حديقة أو بستان، تهوى النكتة وتجيد الضحك ولا تهاب نميمةً تجرح ولا تُدمي، تقول تلميحاً ما لا تقدر عليه أبجدية كاملة الأوصاف، والى الإمتاع والمؤانسة، ثمة المُحرّض المُحفّز على الشعر والكتابة، والأخيرة يتلاقى فيها شخصك ونصك، سواء سمعك جليسك أو قرأك، الخلاصة واحدة: شحنةٌ نفّاثة تحثُّ على اجتراح قصيدة ولو من خضم العدم. ولولا نيران الابداع وجمر القصائد المكتوبة تحت ضوء الشهداء لكنا الآن حقاً في قاع العدم. فهل تعوّض القصيدة غياب شاعرها، وهل تؤنسنا الكلمات يتيمةً على موائد المجرمين؟
أنسي،
كم يلزمني من عواصف لأقول أفتقدكَ، كم يلزمني من غليان حبر ولهب مجاز. أستعين عليكَ بالورد والندى، بضوء الفجر على وَجْنة الصباح، وباللغة المقطّرة في جحيم الحروب. لا تسعفني عليكَ

> المارق الملعون على الورق ليس سوى كائن من حبر وكلمات

سوى بيروت، العاشقة الثكلى التي ساهمتَ في بزوغ أقمارها، وكسرَ بعضَك بعضُ انكسارها، وحاولتَ تضميد جراحها والملمة شظاياها بالكلمات. الآن هنا، ثمة مَن يداوي الحمّى بجرعات من مياه القلب. ففي قاع المدينة ما ينبضُ على الرغم من خراب الأمكنة وفساد الأيام، ثمة شعرٌ ونثرٌ ومسرح ورسم وموسيقى ورقص وأغنيات صاعدة الى أعلى، ولعل الرهان معقودٌ على ما سوف يولد من مخاض دمويّ هائل لم تعرف بلادنا له نظيراً، وأنتَ الأدرى كم من ابداعات مفصلية وتحوّلات كبرى طلعت من رحم حروب وويلات، وليس لنا سوى الوقوف على ناصية الحلم والقتال وفقَ محمود درويش، متى خسرنا الحلم فقدنا معنى الحياة.
أثقلتُ عليكَ. ألا يكفيكَ ثقل صليب حملته شبه وحيد في جلجلة الوجود، أو عبء لغة جرّبتَ انزالها عن صليب الرتابة والتقليد، سرطنتَها ليولد من أحشاء قديمها جديدٌ ما، وكأنها من شدة مكرها وكيدها العظيم، ثأرت منك بأن أذاقتكَ ما أذقتَها. ولا يقلّلن أحد من بطش حروفها أكانت طلاسم أو كلمات، أوَلم يكن في البدء كلمةً؟ لكن مأزق الكلمة الجميل أنها لا تقوى على ذاتها، لا يمكننا القول (مثلاً) أن كلمةً تنسخ سواها، فما سُطّرَ قد سُطّرَ، وما كُتبَ قد كُتب، لا مفرَّ ولا مناص. إذاً، كلمتك باقية بكامل عافيتها وشحوبها، بملائكتها وشياطينها، بجاذبيتها وسطوة وساوسها، بورد حضورها وشوك الرحيل، لأن «شمس العودة» لا يقوى عليها ملاك موت أو سرطان غياب.
كلمةٌ مُنقذة وكلمةٌ مُهلكة، واحدة مُسرطنة وأخرى شافية. بين هذه وتلك، وُلدتَ وعشتَ وكتبتَ، أما الموت فحَدَثٌ عابرٌ، فـ«الناس نيام اذا ماتوا انتبهوا». عساك الآن في يقظة انتباهك، تنعم بحرية مُطلَقة كانعدام الوزن، بلا طقوس ولا دروس أو حتى أغنيات، تمضي خفيفاً كفكرة عابرة، أو كوَمضة عطر هَبت من عنق امرأة عابرة في خيال شاعر أو على قارعة قصيدة.

* شاعر وإعلامي لبناني

# الرسول بشِعره الطويل حتى الينابيع

رؤوف قبيسي *

الكتابة عن غائب مثل أنسي الحاج، كلام عن إنسان حاضر، لا يزال ماء الحياة في عينيه.
ألا نقول في العربية الفصيحة عن عظيم بيننا، إنه ملء عين النشء؟
نحن إذن إزاء رجل ملء عيوننا كان. صوته صوتنا، كلامه كلامنا، نحن الذين عرفناه وعاصرناه وقرأناه، «كلمات» في «النهار» و«خواتم» في «الأخبار».
غياب الكبير ليس فناء، هو اغتراب. نوع من حضور مخفي، دائم بكل المقاييس والصور، متوهج ومشع مثل جمر أبدي، أو كالكلمة الوليمة كما عرفها ميخائيل نعيمة.
لم يمر أنسي الحاج في حياتنا مر السحاب. خمسون سنة وأكثر وهو يسكب الحرف النضير، وقبل أن يرحل إلى رقاده الأبدي، ترك كلمات لا ترقد ولا تستكين، تذكرنا به كلما قرأناها تبرأ هنا وذهباً هناك.
هل يموت رجل مثل أنسي الحاج؟
يقول المؤمنون عن الذي يموت إنه انتقل إلى جوار ربه. لن أذهب إلى البعيد، إذ ليس لي من السماء ما أحتمي به ساعة الشدائد، لكني أقول، والقول ليس تطيراً، إن أنسي ما زال حياً. توقف عن الكتابة كمن يتقاعد. يكفيه أنه ارتكب القصيدة، ومارس النثر بأناقة، وكان مجلياً مثل كل الفاتحين.
حسبه أيضاً أنه فعلها في وقت كانت اللغة فيه قلنسوة وعمامة وجبّة وقفطاناً، فإذا الصبي اليافع الحالم الآتي من الجنوب يخلع عنها أردية البلادة وأصباغ الفخامة وألوان الغلاظة. يداعبها برفق، ويلعب بمفرداتها كما يلعب طفل نبيه بأشيائه، فيخلق منها صوراً ومجسّمات، وخيالات من الواقع ومن خارج الواقع.
هل مات أنسي الحاج، الموت الذي لا قيامة من بعده، أم القيامة من فعل الناصري وحده، كما جاء في المأثور؟ من له أذنان فليسمع... هكذا تقول الكتب! ومن له عينان فليقرأ.
هكذا هم الشعراء الكبار، يرحلون ويبقون. ماثلون في الحضور، في العين والوجدان، فعلاً أقوى بما لا يقاس من صدى اللحن والأغنيات العذاب، وأخلد منها على مر الدهور. لا غلوّ هنا ولا تكلّف، فالذين فتنوا بأنسي الحاج شاعراً وناثراً، سيبقون أوفياء لذكراه. الوفاء الذي لا يعرف التحسر أو الندم أو البكاء، بل الشغف الدائم بتراث الشاعر الأيقونة. وهل هناك شيء أحب إلى قلب شاعر أو أديب مبدع من قراءة الناس ما يكتب؟ هنا الشيء الوحيد الذي يبقي الفنان حياً. أظن، بل أكاد اقطع أن أنسي كان واثقاً من أنه لن يموت، ليس لأنه آمن بالغيب، واعتد بقديسين لا نعتد بهم، ولا وجود لهم بين المناطقة وأصحاب العلوم، بل لأنه كان يدرك في قرارة نفسه أن الشعر لا يفنى، وأن الشاعر العظيم لا يموت، وفي هذا نقره كلنا ونوافقه الرأي. هل مات أبو الطيب والمعري ودانتي وشكسبير وريلكه وغوته وطاغور وكامونز؟
أكاد أسمع قارئاً ينتفض ويقول: على رسلك يا صاح، أنت تبالغ وتغلو، وتقرن أنسي الحاج إلى هؤلاء الكبار في الكتب والتاريخ والعالم. إذا اتفق ووجد هذا القارئ، فسوف أرد عليه وأقول: على رسلك أنت أيضاً. أنا لا أقرن ولا أتكلف إذا قلت إن من الناس من يرى في بعض ما كتب أنسي مسحات من جمال ليست موجودة في أشعار أولئك الكبار. وسوف أضيف قائلاً: ما أدراك أيها القارئ ما تخبئه الآتية من الأيام. كم من الشعراء والفنانين كانوا مغمورين ثم أنصفتهم الأزمان. إن شاعراً مثل ابن الرومي لم يكن الناس يعرفون عنه شيئاً قبل 150 سنة، وها اسمه اليوم على كل شفة ولسان، وفناناً مثل فيفالدي، لم يكن الناس يعرفون عن فنه شيئاً قبل سبعين عاماً، وها اسمه اليوم على كل شفة ولسان.

> غياب الكبير ليس فناء، هو اغتراب، نوع من حضور مخفي، دائم بكل المقاييس والصور

ومن ثم ما لي أنا وأنت أيها القارئ الكريم، وأولئك الكبار في الكتب والتاريخ ؟ حسبنا في لبنان ودنيا العرب، أن الزمن هيأ لنا شاعراً خرج من تاريخنا الحافل بالرتابة والتقليد والجمود، وحلق في الأعالي كالنسور، وزرع في جوف الغيم القاتم من الفضاء نجمة ستبقى تضيء ما بقي المكان وبقي الزمان.
كأني بأنسي، وقد ختم حياته في «الخواتم»، أراد أن يفعل ما فعل جبران في «النبي». بين لحظة الموت والولادة الجديدة، أصعد جبران مصطفاه إلى هضبة خارج «أورفليس»، وجعله يخاطب البحر ويقول: «وأنت أيها البحر الشاسع، أيتها الأم الهاجعة، فيك وحدك السلام والحرية للجدول وللنهر. سيدور هذا الجدول دورة بعد. سيهمس بعد همسة في هذه الغاب، ومن بعدها ستأتيك قطرة لا تحد، إلى محيط لا يحد».
وهناك، عند الجانب الآخر من المحيط، وقف رسول بشِعره الطويل حتى الينابيع، عشبة هوجاء لا تعرف الاستكانة. أوغل في البحر وبدأ يكتب:
«كلما أوغلت في البحر نأى الشاطىء عني
ولكي أسترجع الشاطىء في البحر أغني
كلما امتدت إلى البحر يميني
كان برق خاطف أسرع مني
كلما أوضحت ما كانت تقول الشجره
خذلتني سوسة نائمة في الثمره
هكذا نبدأ من حيث انتهينا
لا لنا شيء ولا شيء علينا»

* صحافي لبناني